

الباب الثاني

صَنَعَةُ الْإِنْسَانِ حَوْلَ كِتَابِ اللَّهِ

- القرآن - والتفسير الموضوعي
- القرآن - والتحديات بين الأمس واليوم ..

الفصل الأول

القرآن .. والتفسير الموضوعي

إذا كان المتقدمون من علماء المسلمين خدموا القرآن الكريم بتجليه معاني كلماته وآياته .. وبيان موقعها في فصاحة العرب : في الأسلوب والتراكيب ، والإعجاز .. واستخلاص الأحكام الفقهية منها.. والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات في العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة .. فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذي يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن ، كدليل صادق على رسالة الرسول عليه السلام . وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية . وربما كان التفسير الموضوعي ، أو استخلاص جوانب هذه الهداية ، بحيث تحدد أهداف الرسالة ، هو السبيل الأيسر للإيمان بمستواها الرفيع الذي يعجز عنه البشر . ومحاولة التفسير الموضوعي لم تحظ لديهم ، بمثل ما حظى عندهم : وقوفهم عند حد الآيات .. والعناية بتراكيبها .. وارتباط اللاحق منها بالسابق .

والتفسير الموضوعي ليس تفسير جملة من الآيات .. ولا استخلاص مضمونها في وحدة قرآنية واحدة . وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل ، من نظرة موضوعية شاملة مرة .. أو استخلاص موضوع محدد : كنهج القرآن في تطوير المجتمع ، أو موقف القرآن من المادية ، مرة أخرى .. أو استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنيت بإبرازه في إطار الدعوة كلها ، مرة ثالثة .



● هدف القرآن ، ككل :

فهدف القرآن جملة ، هو :

أولاً : مقاومة الشرك المادى .. أو الوثنية المادية . ويظهر هذا الإتجاه بوضوح فى السور والآيات المكية . ومقاومة الوثنية المادية فيما تظهر فيه من ظواهر .. أو فيما توجهه من اتهامات إلى القرآن ، وإلى الرسول عليه السلام .. أو فيما تصف به الله ، أو تتصوره من صفات له : كوجود شركاء له .. أو وجود أولاد منه .. أو فيما تنكره من دعوة القرآن ، كالبعث والجزاء الأخرى .

والهدف الثانى : هو تصحيح ما وقع من تحريف أهل الكتاب فى رسالة الله السابقة ، وبالأخص من بنى إسرائيل فى التوراة .. والإنجيل معا . وقد بلغ هذا التحريف قمته فى الشرك بالله وتأليه الإنسان . ويتكفل جزء كبير مما ورد فى السور المدنية - وبالأخص فى سورتي آل عمران والمائدة - ببيان تحريف اليهود والنصارى . وقد أشار القرآن إجمالاً إلى هذا الجانب : فى قول الله تعالى : « ان هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل (يهوداً .. ونصارى) أكثر الذى هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين . ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » (١) ..

أما الهدف الثالث فهو : بناء المجتمع الإسلامى - طبقاً لتطوره ، بعد قيامه بيثرب - على أساس : التكافؤ فى الاعتبار البشرى .. والتكافل فيما بين أفراد المؤمنين جميعاً ، فيما يحقق بينهم العدل الاجتماعى ، بالبعد عن الإسراف فى الاستمتاع بالمتع المادية المتاحة فى محيط الناس .. وبالإتفاق الحر منها فى سبيل الخير العام للأمة . وهذا الجانب الثالث تقوم به السور المدنية فى القرآن الكريم .

والحديث الذى يروى ، من أنه : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام .. والمسجد الأقصى .. ومسجد الرسول عليه السلام بالمدينة » .. هو حديث يربط هذه الجوانب الثلاثة لمضمون القرآن :

(١) النمل : ٧٦ - ٧٩

ككل ، بالمساجد الثلاثة . على معنى : أنه في شد الرحال إلى أى مسجد منها : يتذكر المؤمن جانب الرسالة الذى ارتبط به .. ويتذكر بالتالى ما يجب عليه من المشاركة فى تحقيقه :

● مقاومة المادية :

فزيارة المسجد الحرام تشد الزائر له . إلى تذكر فساد الشرك وأخطار الوثنية المادية على البشرية على نحو ما سيطرت على جو العهد المكي فى تاريخ المجتمع العربى هناك . ومن ثم تدعوه إلى الوقوف فى وجهها .. وإلى مطاردتها فى أى وقت أو فى أى عهد تظهر فيه مرة أخرى فى المجتمع الإنسانى . وفى تحديد القرآن لمظاهرها لا تخفى معالمها إطلاقاً ، مهما حاولت أن تتستر وراء شعارات خادعة : كشعارات الإنسانية .. أو نصره الكادحين .. أو تحقيق العدل الاجتماعى . فأهم مظاهرها :

أولاً : الإعراض من الماديين عن دين الله : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » (٢) ..

ثانياً : اشمئزازهم من ذكر الله إذا ذكر وحده : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » (٢) ..

ثالثاً : إيثارهم الحياة الدنيوية وحدها .. وإلحاحهم فى طلبها : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا (كتاب الله) ولم يرد إلا الحياة الدنيا » (٤) ..

رابعاً : إنكارهم البعث وجزاء الآخرة : « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (٥) ..

خامساً : تمكن الشح من نفوسهم : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله (أى على الضعفاء .. وأصحاب الحاجة فى المجتمع) قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (٦) .. (يقولون ذلك : سخرية واستهزاء) .

(٣) الزمر : ٤٥

(٥) الجاثية : ٢٤

(٢) يس : ٤٦

(٤) النجم : ٢٩

(٦) يس : ٤٧

سادساً : إنفاقهم الأموال — إن أنفقوها — في الصد عن سبيل الله .
وهي : سبيل الخير .. والاطمئنان .. وحسن العلاقات بين الناس :
(ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) (٧) ..

سابعاً : طغيانهم بالمال وبالقوة على غيرهم من المسلمين أو الضعفاء :
(وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون .
وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) (٨) .. (ولا تطع كل حلاف
مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنييم . أن
كان ذا مال وبنين) (٩) ..

ثامناً : إسرافهم في تجاوز العدل .. وإمكانيات الحياة المادية استجابة
للأنانية .. وإمعاناً في حرمان الآخرين وإذلالاً لهم (فاتقوا الله وأطيعون . ولا
تطيعوا أمر السرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) (١٠) ..

تاسعاً : تنكبهم عن الصراط السوي بالإلحاد .. وباللأخلاقية .. وبسفك
الدماء : (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) (١١) ..

عاشراً : إيمانهم بالشواهد والدلائل المادية وحدها ، وإنكارهم
ما وراءها من المعاني والقيم الإنسانية : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر
لنا من الأرض ينبوعاً . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار
خلالها تفجيراً . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً او تأتي بالله والملائكة
قبيلاً . او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى
تنزل علينا كتاباً نقرؤه) (١٢) ..

حادى عشر : استهدافهم من معارضة الدين : التفرد بالسلطة وبالسيادة
على المجتمع .. وعلى العالم في غير نقد : (ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب
هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) (١٣) ..

وأما ادعاءات هؤلاء الماديين بالنسبة للقرآن — وكذلك بالنسبة لكل
رسالة إلهية — فيدعون :

(٨) سبأ : ٣٤ ، ٣٥
(١٠) الشعراء : ١٥٠ — ١٥٢
(١٢) الاسراء : ٩٠ — ٩٣

(٧) الانفال : ٣٦
(٩) القلم : ١٠ — ١٤
(١١) المؤمنون : ٧٤
(١٣) النحل : ١١٦

(أ) أن القرآن من عمل الرسول .. وليس وحيا إلهيا :
« وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه (أى تقوله وألمه ثم نسبه إلى الله كذبا وافتراء) وأعانه عليه قوم آخرون » (١٤) ..

(ب) وأنه تلقنه وتعلمه من غيره ، فهو مؤلفه .. وصاحبه :
« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » (١٥) ..

(ج) وأنه مصدر خداع للناس .. وليس مصدر هداية واقعية :
« ولما جاءهم الحق (القرآن) قالوا هذا سحر وانا به كافرون » (١٦) ..

(د) وأنه أساطير .. وخرافات ، لا تقف أمام العقل والتجارب العلمية :
« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (١٧) ..
.. كما يصفون الرسول عليه السلام :

١ - بأنه ساحر : يخدع غيره بدعوته « قال الكافرون ان هذا لساحر مبين » (١٨) ..

٢ - وبأنه مجنون ، إذ يتناول بنقد الوضع القائم للمجتمع ويعلو على زعمائه وكبرائه : « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر (أى القرآن) انك لمجنون » (١٩)

٣ - وبأنه من آحاد الناس وليس من العظماء والزعماء :
« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٢٠) ..

* * *

● تصحيح اخطاء اهل الكتاب :

أما زيارة المسجد الأقصى ، فإنها تذكر الزائر المؤمن بدعوة الرسول عليه السلام بالجانب الثانى فى رسالة القرآن . هو : جانب تصحيح انحرافات أهل الكتاب من بنى إسرائيل (يهود .. ومسيحيين) : لكتاب الله : التوراة .. والإنجيل من بعده .

(١٥) النحل : ١٠٢

(١٧) الفرقان : ٥

(١٩) الحجر : ٦

(١٤) الفرقان : ٤

(١٦) الزخرف : ٢٠

(١٨) يونس : ٢

(٢٠) الزخرف : ٢١

وقد تمت زيارة الرسول عليه السلام للمسجد الأقصى بالإسراء إليه ، كما يذكر قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع العليم » (٢١) . . . ويروى فى الأحاديث الصحيحة : أنه عليه السلام صلى فى المسجد الأقصى وأمّ رسل بنى إسرائيل وأنبياءهم . وفى مقدمتهم : موسى . . . وعيسى ، إيذاناً بأن إمامته فى الصلاة لهم : هى تكليفه من قبل الله فى قرآنه : بتصحيح الانحرافات التى طرأت على رسالة الدين الإلهى من جانب بنى إسرائيل .

وفى سورة الإسراء يتحدث المولى جل شأنه عن : أن هداية القرآن هى هداية أقوم السبل فى مواجهة ما تبقى من كتاب الله ، أرسل به رسل سابقون : فيقول : « ان هذا القرآن يهدى التى هى أقوم » (٢٢) . . . (أى أقوم سبيل للهداية .. ومعنى ذلك : أن كتاب موسى .. أو عيسى يمثل فقط بقية من هداية الله ، لما قد تعرض له الكتاب من تصحيف) ..

والقرآن يعيد رسالة الله الحقّة فى جوهرها ، التى أرسل بها موسى ، ثم عيسى من بعده عليهما السلام : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق (وهو القرآن) مصدقاً لما بين يديه من الكتاب (أى التوراة والإنجيل) ومهيماً عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، (أى إليك .. وهو القرآن) ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » (٢٣) . . .

.. كما يضع الرسل جميعاً سواء فى وجوب الإيمان بهم من المؤمنين برسوله وهو محمد عليه السلام « قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنساب وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٢٤) . . .

.. ومكة هى من أجل ذلك أصبحت قبلة المؤمنين بالله : من أهل الكتاب .. أو من المؤمنين بالرسول محمد عليه السلام : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد

(٢٢) الإسراء : ٩
(٢٤) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥

(٢١) الإسراء : ١
(٢٣) المائدة : ٤٨

الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون)) (٢٥) ..
 فبكرة أول بيت لله . وضعه إبراهيم وإسماعيل ، وإبراهيم يعود إليه في النسب :
 محمد عليه السلام .. كما يعود إليه رسل بني إسرائيل ، وأنبيأؤهم :
)) ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات
 بينات مقام إبراهيم)) (٢٦) ..

● أخطاء أهل الكتاب :

هي أخطاء في الاعتقاد . إما بجعل الإنسان ابناً لله ، وبذلك يكون شريكاً له في الألوهية على نحو ما قالت اليهود في عزير .. والنصارى في المسيح :
)) وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، (وهم المشركون الماديون عندما قالوا : الملائكة بنات الله) فأنزلهم الله ، انى يؤفكون)) (٢٧) ..
 وإما بجعل الإنسان إلهاً هو الله ، كما صنع المسيحيون فيما يحكى عنهم في قول الله تعالى :)) لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم)) (٢٨) ..
 وإما بالتثليث ، كما قال المسيحيون أيضاً ، في الله .. وعيسى ومريم ، وحكى عنهم القرآن ذلك في مثل قوله :)) لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من الة الا الة واحد)) (٢٩) ..

وقد دعاهم القرآن : مصححا لهم هذا الخطأ في الاعتقاد ، في قول الله تعالى :
)) قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً (إنسانا ما : أو رسولا ما) ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون)) (٣٠) ..

.. وأخطاء أخرى تتعلق بالاحتراف بالدين . وصور هذا الاحتراف عديدة ، منها ، إخفاء بعض ما جاء في كتاب الله : التوراة ، أو الإنجيل ، وإظهار البعض الآخر منه ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :)) تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً)) (٣١) .. والهدف من ذلك جعله مصدراً للكسب ،

(٢٦) آل عمران : ٩٦ ، ٩٧

(٢٨) الأئدة : ١٧

(٣٠) آل عمران : ٦٤

(٢٥) البقرة : ١٤٤

(٢٧) التوبة : ٣٠

(٢٩) الأئدة : ٧٣

(٣١) الأنعام : ٩١

كما يعبر قول القرآن الكريم : « واذ أخذ الله ميثاق الذين اتوا الكتاب (من يهود ومسيحيين) فتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم (أى نبذوا العهد والميثاق) واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشترون » (٢٢) ..

وقد طلب إليهم القرآن أن يتبعوا ما جاء في القرآن ، حتى يقفوا على ما خفى عليهم في كتاب موسى ، وعيسى ، إذ يقول لهم : « يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا (يريد محمداً عليه السلام) يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » (٢٣) كما هدد زعماءهم ممن يباشرون هذا التحريف ، وأنذرهم بقول الله تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً اولئك ما ياكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب اليم » (٢٤) ..

.. ومنها الاحتراف بالدين في صورة تأويله تأويلاً محرفاً لقصد دنيوى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فيما نقضهم ميثاقهم (وهم بنو إسرائيل) لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه » (٢٥) .. (أى إن بنى إسرائيل لحقتهم لعنة الله وغضبه ، بسبب أنهم نقضوا ميثاق الله في وجوب كونهم أمناء على دينه : فحرفوا الكلم عن مواضعه ابتغاء الحياة الدنيا ، وبذلك قست قلوبهم ، فلم يعودوا مباشرين لعمل سوى الفساد والطغيان) .

.. وأخطاء من نوع ثالث تتعلق بالانحراف في السلوك ، بسبب الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى . وترجع هذه الأخطاء في جملتها إلى : العصيان .. وعدم طاعة الله فيما يأمر به أو ينهى عنه : كما شرحت العمل يوم السبت مع أنهم نهبوا عنه .. وكدخلوهم إلى القرية التى كلفوا بالدخول إليها في طاعة واستسلام لله سبحانه ، في كبرياء وغطرسة : « وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت » (٢٦) ..

.. وإلى اعتدائهم بالقتل على نفوس الأبرياء كقتلهم الأنبياء :

(٢٣) المائة : ١٥

(٢٥) المائة : ١٢

(٢٢) آل عمران : ١٨٧

(٢٤) البقرة : ١٧٤

(٢٦) النساء : ١٥٤

((وقتلهم الاتبياء بغير حق)) (*). .. وإلى سفك الدماء ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم :

((واذا اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان ياتوكم اسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم ، افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)) (٢٧) .

.. وإلى أخذهم الربا .. وأكلهم أموال الناس بالباطل : ((فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً)) (٢٨) ..

.. وإلى ادعائهم الباطل . كقولهم على مريم بهتاناً عظيماً : ((وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً)) (٢٩) وكقولهم : إنا قتلنا المسيح ابن مريم : ((وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)) (٤٠) .. وقولهم : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة : ((وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودة ، قل اتخذتم عند الله عهداً فان يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون)) (٤١) .. وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه : ((وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه)) (٤٢) وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى : ((وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى ، تلك امانيتهم)) (٤٣) .. وقولهم لما هو حلال من الطعام : هذا حرام ، كذباً وزوراً : ((كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة)) (٤٤) ..

.. وقولهم على الله : يد الله مغلولة : ((وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا)) (٤٥) ..

.. وقولهم على الله : إن الله فقير ونحن أغنياء : ((لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا)) (٤٦) ..

(٢٧) البقرة : ٨٤ ، ٨٥

(٢٨) النساء : ١٥٦

(٤١) البقرة : ٨٠

(٤٣) البقرة : ١١١

(٤٥) المائدة : ٦٤

(*) النساء : ١٥٥

(٢٨) النساء : ١٦٠ ، ١٦١

(٤٠) النساء : ١٥٧

(٤٢) المائدة : ١٨

(٤٤) آل عمران : ٩٣

(٤٦) آل عمران : ١٨١

وقد أجمل هذه الأخطاء في سلوكهم ، قول الله تعالى : « وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار (وهم علماء اليهود وكتابهم) عن قولهم الأثم وأكلهم السحت ، لبس ما كانوا يصنعون » (٤٧) .. وسجل عليهم لعنة الله في قوله : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبس ما كانوا يفعلون » (٤٨) ..

وسورتا : آل عمران .. والمائدة ، في مقدمة السور المدنية التي تبرز خصائص أهل الكتاب وموقف القرآن منهم ، وموقفهم هم من رسالة الله .



● بناء المجتمع الانساني :

وأخيراً : فإن زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يثرب تذكر الزائر له والمصلى به بالهدف الثالث من أهداف القرآن . وهو هدف بناء المجتمع الإسلامى بالمدينة ، كى يراجع الزائر نفسه وما يلتزم به إزاء قوة هذا المجتمع وتماسكه : إذ فى الارتباط بأفراده .. وإن فى الدفاع عن بقائه .

وقد أقيم المجتمع الإسلامى على أصول عامة فى سياسته الداخلية .. وأخرى فى سياسته الخارجية :

● فى أصول سياسة الحكم :

بقاء المجتمع : وتماسكه : وهذان الأمران — بقاء المجتمع وتماسكه — مرهونان باستمرار الإيمان بالله وحده ، وبعدم الشرك به فى أية صورة من صورته .. ثم باستمرار العمل الصالح . وهو العمل طبقاً لما جاءت به رسالة الإسلام ، يقول الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، (وهو الخوف من الزعماء

والمستكبرين في المجتمع .. والخوف من أعداء الله في داخله وخارجه .. هو الخوف من قلة العدد للمؤمنين وضعف الشوكة لهم) يعبوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون « (٤٩) ..

.. فإذا ضعف الإيمان عند قادة المجتمع وزعمائه ، وخرجوا عن جادة العمل الصالح ، واستمروا الاعتداء ومباشرة الجرائم في حكمهم .. والعبث والفساد في سلوكهم : فإن تغيير قيادة مجتمعهم آتئذ صورة من صور الإرادة الإلهية النافذة : « واذا أردنا أن نهلك قرية (أى مجتمعا) أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (٥٠) ..

« وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، (أى ليشيعوا في المجتمع : العدوان .. والفساد .. ومباشرة الجرائم الاجتماعية) وما يمكرون الا بانفسهم (أى وما يعود أثر عدوانهم ، وفسادهم ، وارتكابهم الجرائم إلا على أنفسهم بتغيير قيادتهم وتحويل مجتمعهم الفاسد إلى مجتمع عادل محسن) وما يشعرون » (٥١) .. (أى بوقوع هذا التغيير إلا فور وقوعه) .

● وفي توازن الاقتصاد .. وتحقيق العدل بين أفراد المجتمع :

وفي هذا الجانب يحرص القرآن على عدة أمور ، منها :

أولاً : المحافظة على الملكية الخاصة للمال : « أنهم يقسمون رحمة ربك ، والخطاب تأنيب للماديين الوثنيين بمكة عندما اعترضوا على اختيار الرسول محمد عليه السلام للرسالة من ربه : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٥٢) .. نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، (أى فنحن قادرون على أن نختار من نشاء للرسالة .. بعد أن قسمنا بينهم في المعاش والأرزاق) ورفضنا بعضهم فوق بعض درجات (في المعيشة والأموال) ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً « (٥٣) ..

(أى ليستخدم بعضهم بعضاً . فصاحب المال يعطى الأجر على عمل ممن لا يملك المال ، ويستطيع العمل في الوقت نفسه ، وصاحب الاستطاعة على

(٥٠) الاسراء : ١٦

(٥٢) الزخرف : ٣١

(٤٩) التور : ٥٥

(٥١) الانعام : ١٢٣

(٥٣) الزخرف : ٢٢

العمل يقدم عمله لصاحب المال ، ويأخذ أجره منه . وبذلك تتبادل المصالح
والمنافع بين الأفراد في المجتمع .. وهذا التبادل سر من أسرار ارتباطه) ..
فإذا ألغيت الملكية الخاصة اعوج وضع المجتمع ووقف تبادل المصالح بين
الأفراد .

وفي النظام الماركسي في الوقت الذي يلغى فيه الملكية الخاصة للأفراد ..
يحول ملكية المال لطبقة معينة ، ومجموعة أخرى هي مجموعة الحزب ..
فالحزب يسخر من لا يملكون المال ، ويستطيعون العمل : من أجل العمل ؛
نظير أجر يتقاضونه من حكومته . وما يسمى في هذا النظام بالملكية العامة :
هو شعار الدولة الحقيقي : ملكية الحزب وعصابة الحكم .

وكذلك إذ يجعل الله ملكية المال ، بجانب وظيفته الاجتماعية ، وسيلة
لابتلاء من يملكه في طاعة الله — والابتلاء مقدمة ضرورية لجزاء الآخرة —
فإن الابتلاء يسقط ، إذا لم تكن هناك ملكية خاصة قائمة « ولتبلونكم بشيء من
الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين •
الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » (٥٤) ..

فتبادل المصالح بين أفراد المجتمع من جانب .. وتحقيق ابتلاء الله بالمال
للإنسان من جانب آخر : يجتمعان في نظر الإسلام في بقاء الملكية الخاصة
وعدم إلغائها وتحويلها إلى ملكية عامة .

ثانياً : المنفعة العامة للمال الخاص . فكون الملكية ملكية خاصة لا يعنى
في نظر الإسلام : المنفعة الخاصة للمال : بل مع كونها خاصة : منفعتها عامة .
ويدل على ذلك قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ،
(أى فهناك تميز في الملكية والأرزاق .. هناك المتفوق في ثرائه والأقل منه
ثراء .. وهناك المحروم ، وصاحب الحاجة) فما الذين فضلوا برادى رزقهم
على ما ملكت إيمانهم (ومن بين الذين لا يملكون — ولا يحق لهم أن يسلوكوا
ظالماً بقيت لهم صفتهم وهى الرق — الأرقاء الذين يدخلون في ملك اليمين .
ومع كونهم لا يملكون فما يعطونه من أرزاق ممن ملكت يمينهم ، ليس في
واقع أمره : مقتطعا من أموالهم . بل هو حقهم في مال المالك . وهم والمالك

سواء في الاتِّفاع بما يملك المالك من مال (فهم فيه سواء ، أفبِنعمة الله يَجحدون) (٥٥) .. كما يدل قوله : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم (أى ليس هناك ممن هم ملك اليمين من الأرقاء : شريك في رزق السيد وفي ماله) فأنتم فيه سواء (ومع ذلك فالأرقاء والأسياد سواء في منفعة المال الذى هو بيد أسيادهم) تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) (٥٦) .. (أى تحرصون أيها الأسياد على أرقائكم فى معاشهم كما تحرصون على معاش ذواتكم) . .

ولكون منفعة المال الخاص : منفعة عامة يحمل الإسلام من يملكونه : على إنفاق الزائد عن حاجة المالك فى سبيل الخير العام والمصلحة العامة ، تحقيقا لوظيفة المال الاجتماعية . فيقول الله جل جلاله (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، (والأموال التى يملكها المؤمنون ملكية خاصة هى التى استخلفهم فيها الله لصالح أنفسهم ولصالح العباد معهم . ولم يحدد الإسلام مقدار ما ينفقه المالك . بل تركه لتقديره هو وإيمانه بالله وبأتمته) فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير) (٥٧) ..

كما يقول : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض (أى جعلناكم أصحاب أمر : أجيالا بعد أجيال) ورفع بعضكم فوق بعض درجات (فى الأموان والأرزاق) ليلوكم فى ما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وانه لقفور رحيم) (٥٨) ..

ولكى تصان المنفعة العامة للمال عن العبث .. ولكى تصل كذلك إلى أصحاب الحاجة فى الأمة : نهى القرآن عن الانحراف فى استخدام المال . فقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل (إذ الحصول على المال من غير طريق مشروع يمنع من أخذ منه عن أن ينفق بعضا منه على الأقل فى سبيل المصلحة العامة ، لأنه يفتقده الآن .. كما يمنع الآخذ له من إنفاقه كذلك فى هذه السبيل . لأن تحصيله له من غير وجه مشروع يدل على أنانيته وعدم اعترافه بغيره معه) وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) (٥٩) .

(٥٦) الروم : ٢٨

(٥٧) الأنعام : ١٦٥

(٥٥) النحل : ٧١

(٥٧) الحديد : ٧

(٥٩) البقرة : ١٨٨

وهناك إذن سبيلان للانحراف في استخدام المال . الأول : تحصينه في المعاملات التجارية والمالية والزراعية عن طريق غير مشروع . والثاني : التواطؤ مع من لهم سلطة الحكم عن طريق الرشوة في الحيلولة دون وصول الحق إلى أصحابه .

ويجب أن لا ينظر المالك للمال على أن ملكه تعبير عن رضا الله عنه . وإنما هو للاختبار به فقط . ولذا يجب أن لا يتحايل في الحصول عليه .. كما يجب أن لا يسكه فلا يوصل منفعته للآخرين : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٦٠) ..

ومن أجل أن ملك المال ليس تعبيراً عن رضا الله عن مالكة ، ربما يفوق الكافر بالله .. المؤمن به ، فيما يملك من المال : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . (أى على كافر) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، (أى في المال والرزق في الدنيا) وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » (٦١) ..

❁ وفي الحرب .. والسلام ، من أجل بقاء المجتمع :

ويرى الإسلام أن القتال ضرورة تفرض نفسها على المجتمع المؤمن بالله . يدفع الاعتداء عليه .. وتوفير الأمان والطمأنينة في الحياة مع أعدائه في الوقت نفسه . فأعداء المجتمع المؤمن بالله – وهم الملحدون الماديون ، وكذلك المحرفون لدين الله من أهل الكتاب – يضمرون العداوة له ، ويتربصون به في الأزمات والشدائد : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (٦٢) ..

وقد جاءت ضرورة الإعداد للقتال في قول الله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٦٣) ..

ولكن ليس معنى : أن القتال قد فرض على المؤمنين .. أنهم يباشرونه

(٦١) الاسراء : ٣٠ ، ٢١

(٦٢) البقرة : ٢١٦

(٦٠) التوبة : ٣٤

(٦٢) البقرة : ٢١٧

مع مخالفتهم في الإيمان ، وإن لم يعتد هؤلاء عليهم . بل مباشرته مقرونة بتلبس أعدائهم بالعدوان عليهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، أن الله يحب المقسطين . »
 إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، (أي أن تجعلوهم أولياء وأصدقاء لكم) ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٦٤) . .

وضرورة القتال في فرضه على المؤمنين أمر أبدي ومستمر في حياتهم ليوم البعث . لأن الكفر .. والإيمان بالله - كضورتين من ضرورات المجتمع - باقيا أيضا إلى يوم قيام الساعة : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » ، (أي بسبب الابتلاء في طاعة الله خلق الله الناس . ونتيجة هذا الابتلاء : إما الكفر .. أو الإيمان به ، وقد جاء أول ابتلاء للإنسان : في أمر آدم وحواء ، بأمرهما بالامتناع عن الأكل من شجرة معينة في قول الله تعالى : « وبأدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقريا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » (٦٥) . .) وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة (أي من أشرار الناس غير المعروفين بشرهم لمن عداهم) والناس (أي المعروفين لغيرهم بأنهم مصدر شر) أجمعين » (٦٦) . .

وإذا كان مبدأ إنفاق المال في سبيل المصلحة العامة - أو في سبيل الله - ضرورة لتماسك الأفراد بعضهم ببعض .. فمبدأ الإعداد للقتال ، والمباشرة الفورية لرد العدوان ضرورة لبقائه ، ككل : على معنى إذا ضعفت المشاركة من الأفراد وتقاعدوا عن مباشرة واجبه في وقاية أمتهم من أعدائها .. فالنتيجة اللازمة : هي تغيير مجتمعهم وزواله . وهذا هو معنى : استبدال الله قوما آخرين غير القائمين في المجتمع ، حال تخاذلهم وتقاعدهم عن القتال ، ذلك الاستبدال الذي جاء في قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أنفقتم إلى الأرض ، (أي تباطأتم عن الاستجابة) أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ،

(٦٥) الاعراف : ١٩

(٦٦) هود : ٦٦

(٦٤) ألمتحنة : ٨ ، ٩

(٦٦) هود : ١١٨ ، ١١٩

(أى أرضيتهم بالاستمتاع بماديات الحياة الدنيا ، ومنها الحرص على حياتكم بعدم الخروج للقتال .. بدلا من الحرص على سلامة القيم العليا التى يلتف حولها المجتمع المؤمن بالله ، والتى تؤدى المشاركة فى صيانتها إلى نعيم الآخرة وجزاء الله فيها ؟) **فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل .** **الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما** (أى فى دنياكم بالمدلة لكم من أعدائكم) **ويستبدل قوماً غيركم** (هم أحرص منكم على سلامة الإيمان بالله) **ولا تضره شيئا** (بقبولكم المدلة .. تم بذهاب مجتمعكم) **والله على كل شيء قدير** ((٦٧)) ..

● وفى العلاقة بالمجتمعات الأخرى :

وتقوم علاقة المجتمع الإسلامى مع المجتمعات الأخرى - وهى مجتمعات الإلحاد والوثنية المادية . ومجتمعات أهل الكتاب - على الحذر والحيطة فى تقبل المشورة .. وعلى عدم الموالاة ، وفى الوقت نفسه : على عدم الاعتداء . لأن عداوة المجتمعات الأخرى للمجتمع الإسلامى عداوة باقية ، ولم تزل تتطلع هذه المجتمعات إلى سقوط المجتمع الإسلامى أو إلى ضعفه على الأقل : « ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه (أى من القرآن) حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله » ((٦٨)) ..

فالحذر والحيطة فى تقبل مشورة أهل الكتاب يدل عليها قوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » ((٦٩)) .. (أى على من يقبل مشورتهم من المجتمعات الإسلامية أن يتحمل عاقبة أمرها . وهى عاقبة المدلة . والانحدار إلى الفناء . وساعتئذ ليس هناك صديق يساعد ولا نصير يعين على الخروج من الشدائد) ..

والحذر والحيطة فى تقبل مشورة الملحدين يؤخذان من عداوتهم البغيضة

(٦٨) الحج : ٥٥ ، ٥٦

(٦٧) التوبة : ٢٨ ، ٢٩

(٦٩) البقرة : ١٢٠

لكتاب الله وقرآنه ، على نحو ما جاء في قول الله تعالى : « **والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو (أى القرآن) عليهم عمی** » (٧٠) . وجاء التعبير صريحا عن قبول مشورتهم في قول القرآن الكريم : « **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به (أى القرآن) جهاداً كبيراً** » (٧١) ..

أما عدم اتخاذ المؤمنين : غيرهم أصدقاء وأولياء ، فالنهي عن اتخاذ ذلك تقصه مثل هذه الآية الكريمة : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين** » (٧٢) ..



وفي إطار الهدف الرئيسي للقرآن - موزعا على هذه الجوانب الثلاثة : جانب مقاومة الوثنية المادية .. وجانب تصحيح التحريف الذي باشره أهل الكتاب في رسالة الله .. وجانب بناء المجتمع الإسلامي : في أصول حكمه ، وفي أخلاقياته في السلوك والمعاملة - يدور التفسير الموضوعي للقرآن ككل ، بين الإجمال والتفصيل في تحديد هدفه . يسكن عندئذ أن يعرض كل جانب من هذه الجوانب ، مستوفيا وملما بما جاء به القرآن في آياته كلها . بحيث يصح أن يكون دستوراً ينطوي على مبادئه في الجانب المقصود في سر ، وفي غير تطويل .



● هدف كل سورة على حدة :

وبجانب استخلاص هدف القرآن - ككل - من سورته المكية ، والمدنية .. واستخلاص ما لكل جانب من جوانب هذا الهدف ، مستقلا بعد ذلك .

وهنا نعرض لبعض النماذج في استخلاص المطلوب من بعض السور المكية : وهي سورة « الأنعام » هنا . وذلك المطلوب هو ما تستهدفه السورة أولا وبالذات ، يضاف إليه : ما يستخدمه القرآن في السورة من

(٧١) الفرقان : ٥٢

(٧٠) فصلت : ٤٤

(٧٢) المائدة : ٥٧

تاريخ البشرية في مجتمعاتها .. أو ما يعد به الله من نعيم ، أو عقاب : للمطيع على طاعته ، وللعاصي على عصيانه وإثمه أو جريمته .

● سورة الأنعام :

.. فسورة الأنعام تحرص في الدرجة الأولى على تحريم تدخل السلطة القائمة : دينية .. أو سياسية ، في الأموال الخاصة باسم الله ، أو بأى اسم آخر (كاسم الشعب أو الأمة) والاعتداء على حرمتها ، لمنفعة شخصية من وراء ذلك ، تعود على ممثلي تلك السلطة .

والسلطة القائمة إذ ذاك في مكة : كانت سلطة دينية .. سلطة الكهان . والكهان كانوا يمثلون الطبقة الوسطى ، التي تلى الطبقة العليا في معرفة غيب السماء ، وهي طبقة شياطين الجن . فكان يدعى : أن هؤلاء الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء الدنيا في حديث الله مع الملائكة ، ثم ينقلون ما يسمعون إلى الكهان . وجاء ادعاء هؤلاء في نقلهم علم الغيب عن أولئكم في قول الله تعالى : « **وانه تئن رجال من الانس (وهم الكهان) يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وانهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله أحداً** » (٧٣) ..

والكهان بدورهم يمارسون مع العامة ، وهي الطبقة الدنيا : حرفتهم بما يدعى من علم الغيب ، وينسبونه كذبا إلى الله سبحانه من : حل هذا .. وتحريم ذلك ، مما يجرى في حياتهم . وبالأخص فيما يتصل بشروطهم الحيوانية ، والزراعية . وهي ثروة تمثل الاقتصاد القومي لمجتمعهم في ذلك الوقت . ونظيرها - ويأخذ حكمها - كل ثروة أخرى يعتمد عليها المجتمع البشري في أى وقت وعهد ، كالثروة الصناعية والتجارية في المجتمعات المتطورة المعاصرة .

وقد واجهت سورة الأنعام هؤلاء الكهان بحقيقة احترافهم بالكهانة .. ومدى ما ينتظرهم من جزاء على سوء صنيعهم ، والكذب فيه ، في قول الله تعالى : « **ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح**

اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون)) (٧٤) ..

ثم أخذت السورة توضح صور تدخلهم في الأموال الخاصة في المجتمع المكي إذ ذاك . فذكرت :

— فرضهم نصيبا معيناً في أموال أتباعهم : يؤخذ منها ليعود إليهم وحدهم ، تحت ستار : إنه لله مرة .. وإنه لأصنامهم مرة أخرى : « وجعلوا لله مما ذرأ (أى خلق) من الحرت (الثروة الزراعية) والأنعام (والثروة الحيوانية) نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، (أى أصنامنا) فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، (وإنما يصل إليهم هم لأنهم القائمون على خدمتها) وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، (أى كذلك يصل إليهم أنفسهم) ساء ما يحكمون » (٧٥) ..

— وحجرهم على نوع معين من الثروة الحيوانية .. ونوع آخر من المحاصيل الزراعية ، بحيث لا يباح تناوله ولا الطعام منه إلا لمن يأذنون له منها بذلك : « وقالوا هذه أنعام وحرت حجر (أى موقوف التصرف فيها) لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم » (٧٦) .. (ويعنون خدم الأوثان .. والرجال دون النساء) .

— وتحريمهم استخدام نوع معين من الأنعام : فلا يركب .. ولا يحلب دره .. ويطلق فلا يمنع من الماء والمرعى « وأنعام حرمت ظهورها » (٧٧) .. وهذا النوع ثلاث فصائل :

الفصيلة الأولى : البهيرة . وهى الناقة التى يشق أذنها ، بعد أن تنتج خمسة أبطن ، آخرها ذكر .

الفصيلة الثانية : السائية . وهى الناقة التى تطلق ولا تقيد ، ولا تمنع عن المرعى والماء ، إن عاد صاحبها سالماً من سفر .. أو خرج من مرض ذا نقاهة . وقد وعد بها ، إن عاد من سفره سالماً .. أو شفى من مرضه .

(٧٥) الأنعام : ١٣٦

(٧٧) الأنعام : ١٢٨

(٧٤) الأنعام : ٩٣

(٧٦) الأنعام : ١٢٨

الفصيلة الثالثة : الحام . وهو الفحل الذى أنتجت منه الأثى من الحيوان : عشرة أبطن . فيقال له : الآن قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يصل عليه ، ولا يمنع من ماء ، ولا مرعى .

وجاء توضيح افتراء الكهان فى هذا المنع والتحرير لهذه الفصائل الثلاثة من النعم ، فى قول الله تعالى : **« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون »** (٧٨) ..

.. وعدم ذكرهم اسم الله على ما يذبح من الأنعام ، وذكر اسم أحد الأصنام بدلا من المولى جل جلاله ، حتى يكون أكل ما يذبح وقفا على خدمة الصنم الذى ذكر اسمه عليه : **« وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون »** (٧٩) ..

.. وقصرهم حل ما فى بطون البحار والسواكب - إن خرج حيا - على الذكور وحدهم دون نساءهم . فإن خرج ميتا فجميعهم شركاء فيه :

« وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام (من البحار والسواكب) خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وان يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، (أى قولهم هنا : بالحل والتحرير على النحو المبين) انه حكيم عليم » (٨٠) .

وقد عقب القرآن على صنع هؤلاء الكهان ، وقبول أتباعهم لصنيعهم بقوله : **« قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم (وهذه جريمة كانوا يرتكبونها بناء على توصية الكهان لهم خشية الفقر .. أو سبى أولادهم فى الحرب فيما بينهم .. على نحو ما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى هذه السورة : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم (أى ليحطموهم وينهوا وجودهم) وليلبسوا عليهم دينهم »** (٨١)) وليخطئوا عليهم الأمر فى شئون توجيهم .) وحرّموا ما رزقهم الله

(٧٩) الأنعام : ١٢٨

(٧٨) المائدة : ١٠٣

(٨١) الأنعام : ١٢٧

(٨٠) الأنعام : ١٢٩

(من الحرث والأنعام على النحو السابق) افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (٨٢) ..

.. ثم أوضح الحلال والحرام فيما يحصل من الثروة الزراعية . أو يقتنى في الثروة الحيوانية ، فقال في شأن الثروة الزراعية : « كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (٨٣) .. فنصح فيه بثلاثة أمور :

الأمر الأول : برفع الحظر عن الاستمتاع بصنوف ما يزرع ويشتر منها « كلوا من ثمره اذا اثمر » .

الأمر الثاني : إخراج حق أصحاب الحاجة منه ، تحقيقاً للمنفعة العامة للمال : « وآتوا حقه يوم حصاده » ..

الأمر الثالث : عدم الإسراف في الاستمتاع به ، كي تتحقق بالإعتدال فيه : فضلة تعود على أصحاب الحاجة .

الأصل اذن : هو الحل في الاستمتاع بأصناف المزروعات .. والاعتدال فيما يؤكل ويستمتع به منها .

.. وقال في شأن الثروة الحيوانية : « قلل الذكربن حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ، فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، أن الله لا يهدي القوم الظالمين . قل لا أجد في ما أوحى الى محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » (٨٤) .. فيستكر القرآن : أن يكون هنا محرم من الأنعام على طاعم يطعم منها ، إلا أن يكون ميتة .. أو دماً مسفوحاً .. أو لحم خنزير .. أو لم يذكر عليه عند ذبحه اسم الله . كما يرخص عند الضرورة : الأكل من هذه المنوعات بقدر الحاجة : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

.. كما نقل (القرآن) الحل .. والحرمة من مجال الملكية الخاصة في الثروة القومية (وهي الثروة الزراعية ، والحيوانية) .. إلى مجال العلاقات

الاجتماعية . لأن التدخل في الملكية الخاصة يبدو فيه الانحراف في توجيهه .. والرغبة في تحصيل المنفعة الخاصة ، ممن بيده سلطة الحل والحرمة . أما التدخل في تنظيم العلاقات بين الأفراد ، بما يحفظ عليها التماسك والبقاء في قوة .. والصفاء فيها : فإنه يستهدف لا محالة : الإصلاح .. والمصلحة العامة التي تعود على كل فرد بالخير . فيقول بعد التعقيب على صنع الكهان ، وجهالة المجتمع المكي الوثني : « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركونا به شيئاً ، (لأن الشرك بالله هدر لكرامة الفرد .. ودعوة إلى قسمة المجتمع إلى مجموعات وطوائف) .

« وبالوالدين احساناً ، (لأن الإحسان إلى الوالدين تعبير من الأولاد عن معنى الإنسانية الذي يملكهم الآن) ،

« ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، (لأن في قتل النفوس الصغيرة البريئة : تخلياً أولاً عن المسؤولية الإنسانية التي توضع على الآباء لصالح الأولاد .. ومظهراً ثانياً ينم عن البربرية التي تدفع إليه) .

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، (لأن ارتكاب الفواحش — وهي الجرائم الاجتماعية ، كجريمة انتهاك العرض .. وسرقة المال — من شأنه أن يثير الاضطراب ، ويزيد من الحقد في العلاقات بين الأفراد . والاضطراب والحقد في العلاقات الاجتماعية من أشد العوامل فتكا في تقويض المجتمع) .

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تصقلون » (٨٥) (إذ في قتل النفس التي لم يكن قتلها في قصاص مثلاً : اعتداء واضح على المجتمع نفسه ، يجب تجنبه بكل وسيلة ، إذا أريد لهذا المجتمع أن يبقى في صفاء .. وفي تماسك) .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده ، (فالمحافظة على مال اليتيم — وهو الضعيف بنفسه — أمانة على رشد الإنسان في إنسانيته ، عندما يتولى أمر هذا الضعيف) .

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا الا وسعها ،
(والعدل في المعاملة حسب الطاقة البشرية : أساس في عدم تفكك المجتمع ..
وفي عدم حقد الأفراد بعضهم على بعض) .

« وإذا قلتهم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، (وتجنب الزور في الشهادة ..
واللغو في الحديث .. والكذب والافتراء في النقل والرواية : ليس دليلا
فحسب على إنسانية الإنسان الشاهد ، والمتحدث ، والحاكى . وإنما هو
وسيلة لرفع البغضاء في علاقات الأفراد مع بعضهم) .

« وبعهد الله أوفوا » (٨٦) .. (وعهد الله هو كل عهد لا يستهدف
إلا الخير والمصلحة العامة .. كل عهد لا يظوى على الشر ، والإيذاء ،
والانتقام من أحد لحساب أحد . والوفاء به هو أمانة من أمارات النضج
في المعاملات المتبادلة) .

.. فالقرآن إذ يبعد تدخل السلطة القائمة في الأموال الخاصة لغير مصلحة
عامة .. يطلب - في أمر .. وفي نهى - تنظيم العلاقات بين الأفراد في
الأسرة ، وفي المجتمع ، للبقاء على تماسك هذه العلاقات في قوتها وفي
صفاتها .

فهو يطلب في تنظيم الأسرة : الإحسان إلى الوالدين .. ورعاية الأولاد :
بتجنب قتلهم خشية الفقر .. أو السبى في حرب .

ويطلب في تنظيم علاقات المجتمع : عدم الاعتداء على الآخرين بالقتل
أو بانتهاك العرض .. أو بسرقة الأموال .

.. كما يطلب صيانة مال الضعيف ، عند مباشرة الوصاية على ماله ..
والعدل في المعاملات المالية والتجارية .. والعدل في القول والشهادة ..
والوفاء بالعهد ، إذا استهدف العهد تحقيق مصلحة عامة ، وهو عهد الله .

.. ويطلب قبل هذا كله : عدم الشرك بالله . لأن في الشرك بالله سقوطاً
بالإنسان إلى مستوى أدنى من الأصنام إذا عبد أصناما .. وأدنى من الإنسان
ذاته ، إذا اتجه بالخضوع والعبادة لإنسان ما : رسول أو غير رسول .

وإذا سقط الإنسان عن مستوى إنسانيته لا يستطيع أن يكون أسرة ،
ولا أن يكون عضواً في مجتمع إنساني متماسك .

ولذا : تسمى سورة الأنعام . هذا التنظيم في علاقات الأسرة ، والمجتمع
معاً . بالصراط المستقيم : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٨٧) ..

* * *

وبجانب هذا الهدف الرئيسي للسورة : ذكرت ما تعود القرآن أن يذكره
في السور المكية كلها ، أو بعضها - من :

- إعلان أن القرآن دعوته للهداية ..

- ومن تصورات الوثنيين الماديين لأسباب رفضهم لدعوة القرآن ..

- ومن توضيح قدرة الله على تغيير المجتمع : من وضع وثني مادي ..
إلى وضع إنساني في الدنيا ، مع الاستشهاد بتاريخ المجتمعات السابقة .

- ومن تظمين الرسول على نجاح دعوته ، رغم شدة المعارضة ،
وقسوة المواجهة لدعوته ..

- ومن المسؤولية الفردية في الانحراف ، والتمادي في المعارضة ، لكل
منحرف ومصر على انحرافه ..

فالقرآن يعلن دعوته في قول الله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبسوراً
مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة
يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون » (٨٨) ..

وهي دعوة تنطوي على ثلاثة أهداف :

أولاً : إن رسالة القرآن هي رسالة الإسلام في كل كتاب سماوى ..
هي رسالة الله للإنسان على الأرض وفي هذه الحياة الدنيا .

ثانياً : إنها تستهدف تصحيح الوضع البشري في شبه الجزيرة أولاً ،

وهو الوضع المادى فى مجتمعها ، كنقطة بداية لتصحيح المجتمع العالمى كله ونقله إلى وضع إنسانى سليم .

ثالثاً : تطمين الرسول عليه السلام : أن الذين سيؤمنون بالقرآن هم أولئك الذين يؤمنون بالآخرة ، وبالبعث .. أى أولئك الذين لم يقعوا تحت تأثير الاتجاه المادى فى سلوكهم ، وفى مواقفهم ، فيقفوا بالسلوك والمواقف : عند حد الدنيا وحدها ، وإنكار الآخرة . ومعنى ذلك .. أن المكيين - وهم وثنيون ماديون - ليسوا موضع أمل كبير للإيمان بالقرآن .

.. كما يعلنها فى قوله : « قل اننى هدانى ربه الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » (٨٩) ..

وفى الوقت الذى يعلن القرآن فيه دعوته هذه على النحو الذى تحددت به هنا .. يرفق إعلانها : بأنها بعيدة كل البعد عن الخداع .. أى بأنها موضوعية ومجردة عن كل شائبة لا تتصل بالواقع بصلة :

« قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملك ، ان اتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، افلا تفكرون » (٩٠) ..

.. فهو عليه السلام - وهو صاحب الدعوة - لا يمتلك المال لتوزيعه على الأتباع .. وليس هو فى طبيعته فوق البشر ، حتى يدعو تميزه إلى إقبال الناس عليه .. وليس إلا إنساناً يتبع ما يوحى إليه من ربه : فى تبليغه .. وفى الاهتداء به كقدوة مثلى .

.. كما يقص - أى القرآن - بعض الأسباب التى يتصورها ويعبر عنها الماديون المكيون : لرفض القرآن . فيقول : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، (أى هلاله) كان معه ملك يدعم رسالته من عند الله . إذ أنهم كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله وجعلوا بينها وبين الله نسبة : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبة ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرن » (٩١) ..) ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر

٥٠ (٩٠) الأنعام :

(٨٩) الأنعام : ١٦١

(٩١) الصافات : ١٥٨

ثم لا ينظرون» (٩٣) (أى ولكن نزول الملك هو إعلان على إنتهاء الحياة
الدنيوية . ومن ثم لا تكون لهم فرصة للإيمان والعمل به) .

ويقول أيضا : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، (أى هلاء نزلت
عليه أمارة مادية تؤيد صدق رسالته ، كالتى نزلت على موسى ، أو عيسى ،
من قبل) قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم
لا يعلمون » (٩٣) ..

.. ويقول كذلك - منكرين بشرية الرسول - :

(وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل
من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس) (٩٤) ..

.. وفى بداية السورة .. وفى نهايتها أيضا ، يوضح القرآن مدى قدرة
الله على تغيير المجتمع . فيقول فى أول السورة : « ألم يروا كم أهلكنا من
قبلهم من قرن (أى مجتمع) مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم (فكانت لديهم
مصادر عدة للقوة والسيادة) وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار
تجرى من تحتهم (ومن هذه المصادر العديدة للقوة : كان الرخاء فى
العيش ، ويسر الحصول على الرزق ، بسبب وفرة المياه لرى الزراعة ..
وتربية الحيوان .. وشرب الإنسان) فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من
بعدهم قرناً آخرين » (٩٥) (أى جيلا ومجتمعا آخر على النقيض من سابقه
فى السلوك وعبادة الله وحده) .

.. ويقول فى آخرها : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم
فوق بعض درجات ليلبئوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لفسفور
رحيم » (٩٦) ..

.. فبينما القرآن يريهم فى أول السورة : أن الاعتماد على القوة المادية
لا تغنى المجتمع عن سقوطه ، إذا ظل زعماءؤه يرتكبون الفحشاء والمنكر ،
ويسلكون طريق العبث والفساد ، ويكذبون بالقيم الإنسانية العليا ، التى
تمثلها رسالة الله . إذا به فى آخرها يذكرهم بأنهم خلفاء لأجيال سبقتهم ..

(٩٣) الانعام : ٣٧

(٩٥) الانعام : ٦

(٩٢) الانعام : ٨

(٩٤) الانعام : ٩١

(٩٦) الانعام : ١٦٥

وأنتهم الآن موضع اختبار : فى طاعتهم ، أو فى عصيانهم له ، فىما أعطى لهم من نعم ، وبالأخص نعمة المال والجاه .. وعليهم من أجل ذلك أن يعيدوا النظر فى موقفهم من القرآن والإيمان به .

.. وفى جانب تطمين الرسول عليه السلام يقول سبحانه :

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، (أى لقضائه وإرادته التى تعبر عنها كلمات الله فىما يعد به رساله من النصر والتأييد) ولقد جاءك من نبا المرسلين » (٩٧) .

.. ثم عدد القرآن من الرسل من ساقهم فى قوله : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، أن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته (أى ذرية إبراهيم) داوود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفروا بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله ، فبهدهم اقتده ، قل لا اسألكم عليه (أى على القرآن) أجراً ، ان هو الا ذكرى للعالمين » (٩٨) .. وطلب منه الاقتداء بالسابقين من الأنبياء والرسل . وطالما هو عليه السلام لا يأخذ أجراً على دعوته .. فليس هناك ما يعوقه عن استمراره فيها ، رغم ما يواجهه من معارضة ورفض لها .

.. والمسئولية الفردية قد أعلنها فى قوله تعالى : « ولا تكسب كل نفس الا عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى » (٩٩) ..



وبالتفرقة بين الجو المكى للسورة - آية سورة - الذى تحدده العناصر السابقة ، وهو جو يتكرر بصورة أو بأخرى فى السور المكية ، ويعد طابعا

(٩٨) الانعام : ٨٣ - ٩٠

(٩٧) الانعام : ٢٤

(٩٩) الانعام : ١٦٤

لها بوجه عام ... وبالأمر الخاص الذى يبدو مميزاً فيه سورة عن سورة : يتضح الهدف المقصود من السورة .. مثل ذلك الهدف الذى سقناه هنا فى سورة الأنعام : وهو منع التدخل فى الأموال الخاصة من السلطة القائمة . فإنه كان من العرف الشائع فى المجتمع المكي ، ونظيره يحدث فى كل مجتمع مادي ، على نحو إلغاء الملكية الخاصة فى المجتمع الماركسي الاشتراكي. وهو مجتمع وثنى مادي .

فإن عرف هدف كل سورة .. وعرف مع ذلك الهدف العام لرسالة القرآن ، عن طريق التفسير الموضوعى للقرآن : كان من اليسير تخطيط حياة الإنسان على أسس موضوعية تكون الأصول العامة لسياسة الحكم فى الإسلام .. وللأخلاق فى السلوك .. وللموقف فى العلاقات الدولية .

وليس معنى استخلاص الهدف الرئيسى من كل سورة ، عن طريق التفسير الموضوعى ، هو أن لا تفسر الآيات تباعاً ، وأن لا توضح الكلمات الغريبة فيها ، بل معناه : بجانب هذا النوع من التفسير الذى درج عليه المفسرون : يمكن استخلاص الهدف الموضوعى ، كما أشرنا . وبذلك لا يضع القارئ بين أسطر التفسير الجزأ . وبالأخص ذلك الذى لم تتكون لديه الدربة على مراجعة الأسلوب التقليدى ، وما يصحبه من جولان ورحلات فى فروع الثقافة العربية المختلفة . ثم جانب آخر يتضح : إعجاز القرآن فى موضوعيته .. وفى ملاءمته للطبيعة الإنسانية .



❶ سورة الشعراء :

وعلى غرار سورة الأنعام : نعرض لسورة الشعراء أيضاً ، كسورة مكية ، وبقراءة سورة الشعراء يبدو واضحاً : أن الهدف من السورة . رفض القرآن لأمرين ادعاهما الوثنيون الماديون بمكة ، تأثراً بما هم يعيشون فيه من خرافة واعتقاد باطل :

أولاً : يرفض كتاب الله أن يكون القرآن على نمط الكهانة : يدعى فيها استراق السمع من غيب السماء .. وأن الذى يباشر السمع هم مرده

الشياطين . فيقول تعالى : « وما تنزلت به الشياطين . (أى وليست لهم صلاحية إطلاقاً أن ينزلوا به) وما ينهى لهم وما يستطيعون . (أى وفي الوقت التى تنتهى لديهم الصلاحية للنزول به .. هم لا يستطيعون كذلك أن ينزلوا به . فإذا فقدت الشياطين الصلاحية جملة .. وفقدت القدرة والطاقة على مباشرة إنزاله : فقد تأكد أنهم لم ينزلوا به)
انهم عن السمع لمعزولون » (١٠٠) .. ويضاف إلى عدم صلاحيتهم .. وعدم قدرتهم : عزلمهم عن سماع الغيب من السماء ، عزلاً تاماً ومؤكداً . وبهذا : يصبح القرآن وحياً من عند الله ، أرسل به رسول إلى المصطفى المختار محمد بن عبد الله عليه السلام .. وليس نمطا من أنماط الكهانة التى يعيشون فى ظلها .

.. على أنه من جانب آخر . أن الشياطين – وهم أشرار الموجودات – لا تتصل إلا بالأفكين الكذابين . ومحمد بن عبد الله عليه السلام : عرف بالصدق ، والأمانة بين العرب المكيين على وجه أخص : « هل أنبتكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع (أى هؤلاء الأفاكون يلقون ما يسمعونهم إلى غيرهم من الشياطين المردة ، كى ينقلوا عنهم) وأكثرهم كاذبون » (١٠١) .. (ومع أنهم يلقون بالسمع إلى الأشرار .. فهم فى أغلبيتهم كاذبون .. أى إنهم إذا سمعوا من شياطينهم كذبا – منسوبا إلى غيب السماء – فإن أغلبهم أيضا لا يتورع أن يضيف إلى ما سمع من كذب : كذبا آخر من عند نفسه) .

وبتوضيح هذا الواقع يتجلى : أن طابع الكهانة يعيد كل البعد عن القرآن ، الذى هو وحى الله ، نزل به جبريل إلى محمد عليه السلام .. كما يتجلى كذب الخرافة – من ناحية أخرى – التى كانت شائعة بين أصحاب السلطة الدينية بين المكيين . وهى أن الكهانة نوع من غيب الله ، جاء به رجال من الجن ، كان يلوذ بهم نفر من الكهان . إذ أن الجن معزولون عزلاً تاماً عن علم الغيب : « انهم عن السمع لمعزولون » .. « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » (١٠٢) ..

(١٠١) الشعراء : ٢٢١ – ٢٢٢

(١٠٠) الشعراء : ٢١٠ – ٢١٢

(١٠٢) سبأ : ١٤

ثانياً : يرفض كتاب الله أيضا : أن يكون القرآن نمطا من أنماط الشعر ..
.. أى يرفض أن يكون منظويا على كذب الشعراء وخداعهم ، فيقول :

« والشعراء يتبعهم الغاؤون . (أى الضالون والحائرون . لأنهم يقولون
فى الشئ : وصفا معنا ، ثم يتبعونه بوصف مضاد له . والحقيقة إذن ضائعة
بين الضد .. وضده) ألم تر أنهم فى كل وأد يهيمون . وانهم يقولون
ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا
من بعد ما ظلموا » (١٠٢) .. (من أمثال عبد الله بن رواحة .. وحسان
ابن ثابت .. وكعب بن مالك .. وكعب بن زهير) .

.. وبإبعاد طابع الكهانة . وطابع الشعر عن القرآن : يصح القرآن كتاب
حقائق .. وكتاب صدق من عند الله .

.. وبالإضافة إلى الهدف المميز فى سورة الشعراء : تذكر السورة
أيضا - كسورة مكية - ما تعودت السور المكية أن تذكره ، بجانب الهدف
الرئيسى للسورة ، من :

.. إعلان القرآن دعوته للهداية . كما جاء فى قول الله تعالى هنا :
« وانه لننزل رب الصالحين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من
المنذرين . بلسان عربى مبين . وانه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية ان
يعلمه علماء بنى اسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقراه عليهم
ما كانوا به مؤمنين » (١٠٤) .. وكما جاء فى قوله : « فلا تدع مع الله الها
آخر فتكون من المعديين . وانذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن
اتبعك من المؤمنين » (١٠٥) ..

.. ومن توضيح قدرة الله على تغيير المجتمع .. مع الاستشهاد بأحداث
التاريخ على هذا التغيير . فقد جاء فيها قول الله جل جلاله : « كذلك سلكناه
فى قلوب المجرمين . (أى على نحو عدم إيمان المجتمعات السابقة برسالة
رسلهم : استقر فى قلوب المكئين - بسبب إجرامهم - أنهم لا يؤمنون
بالقرآن رسالة محمد ، مهما كانت الآيات الدالة على وجوب الإيمان به)
لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم . فيأتهم بغتة وهم لا يشعرون .

(١٠٤) الشعراء : ١٦٢ - ١٦٩

(١٠٢) الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧

(١٠٥) الشعراء : ٢١٢ - ٢١٥

فيقولوا هل نحن منظرون . اقبضنا يستعجلون . افرابت ان متعناهم
سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمنعون .
وما أهلكتنا من قرية الا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين « (١٠٦) ..

وقد قصت السورة - مع تأكيد الله تغييره لمجتمع العابثين :
« وما أهلكتنا من قرية الا لها منذرون » - من أحداث التاريخ :
ما تستشهد به : على أن ما سيقع لزعماء المكين الوثنيين الماديين من تغيير ،
قد وقع من قبل ، لمجتمعات عديدة ، عارضت رسلها بالباطل : قصت أنباء
مجتمعات سبعة سبقت المجتمع المكي .. قصت :

مجتمع موسى : من الآية العاشرة .. إلى الآية الثامنة والستين .

ومجتمع إبراهيم من الآية التاسعة والستين .. إلى الآية الرابعة بعد
المائة .

ومجتمع نوح : من الآية الخامسة بعد المائة .. إلى الآية الثانية والعشرين
بعد المائة .

ومجتمع هود : من الآية الثالثة والعشرين بعد المائة .. إلى الآية الأربعين
بعد المائة .

ومجتمع صالح : من الآية الحادية والأربعين بعد المائة .. إلى الآية
التاسعة والخمسين بعد المائة .

ومجتمع لوط : من الآية الستين بعد المائة .. إلى الآية الخامسة والسبعين
بعد المائة .

ومجتمع شعيب : من الآية السادسة والسبعين بعد المائة .. إلى الآية
الحادية والتسعين بعد المائة .

.. ثم أردفت هذه المجتمعات بمجتمع الرسول عليه السلام : ابتداء من
الآية الثانية والتسعين بعد المائة .

.. ومن تظمين الرسول عليه السلام . فذكرت قول الله تعالى :

« لعلك باخع نفسك (أى قاتل نفسك حزنا وأسفا) الا يكونوا مؤمنين .
ان نشأ نزل عليهم من السماء آية (أى مادية ، كما يطلبون)
فظلت أعناقهم لها خاضعين . (أى من شأنها : أنهم لا يستطيعون إزاءها
إلا التسليم والإذعان) وما ياتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه
معرضين » (١٠٧) .. (ولكنهم جبلوا على المعارضة والكفر بما يأتى به وحى
الله . والأمر إذن ليس أمر إقناع بآية مادية أو بأخرى . وإنما الأمر أمر عناد
.. و صلف .. ومصالحة خاصة فى المعارضة والتولى عن هداية الله) ..

.. وأخيراً من ذكر المسؤولية الفردية عن الانحراف ، والتولى عن دين
الله . فقد جاء فى هذه السورة قوله سبحانه : « فان عصوك فقل
انى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم » (١٠٨) .. (أى فمسئولية
عصياهم لا تقع عليك أنت - أيها الرسول صلوات الله عليك - وإنما تقع
عليهم وحدهم ، وهم المتحملون لها) .. وجاء قوله كذلك :
« وسيعلم الذين ظلموا (أى بسبب رفضهم الإيمان) اى منقلب
يتقلبون » (١٠٩) ..



وعلى هذا النحو من طريقة التفسير يستعين القارئ على استخلاص
أهداف السورة المكية .. ثم الأخرى المدنية .. ويصل بذلك إلى الهدف
العام للقرآن الكريم . وهو :

- مقاومة الوثنية المادية . وقد عرفت بظاهرها .. وبعقيدتها ..
- وتصحيح تحريف أهل الكتاب ، فيما جاءت إليهم من رسالة ..
- وأسس قيام المجتمع الإسلامى .. وبقائه . فى عزة ورفعة .
- .. ويصبح بالتالى من غير العسير على المؤمن القارئ لكتاب الله : أن
يتعلم منه مباشرة طريق هدايته فى السلوك .. وفى المعاملة .. ويؤمن صدقاً
بأنه كتاب من عند الله .

